# المقال التاسع

## مدى مشروعية المسيحيين في البحث عن أطر جديدة بدلاً عن الإسلام

هذا المقال أخذته من كتاب قيم بعنوان (العلمانية المنشأ والأثر في الشرق والغرب) لمؤلفه زكريا فايد ولأن العلمانية الآن أصبحت واحدة من المشاكل في العالم الإسلامي كان لابد من أن نتطرق لها وننشر عنها المقالات ما استطعنا.

إن الباحث في أحداث تاريخنا المشترك - أي المسلمين والمسيحيين - لابد من أن يتبدى أمام عينيه أن معظم الدعوات الباحثة عن أطر جديدة لبلادنا بدلاً عن الإسلام بدأت من مسيحي الشرق الأمر الذي نجد أنفسنا متسائلين عن مدى مشروعية بحثهم في هذا الإطار الجديد فعلى مستوى الفكر كان المفكرون المسيحيون من أشد الأنصار تطرقاً للنزعة العلمانية التي تؤكد على فصل الدين عن الدولة وقيام دولة على أسس وضعية ودنيوية فقد شهد القرن السادس عشر ظهور العديد من الدعوات الباحثة عن بدائل وضعيه بدلاً من الاتحاد الديني (الإسلامي) وذلك ابتداءً من النزعة القومية التي تود تحويل الانتماء من الإخوة في الله إلى (الأخوة في الوطن) وما قد يستتبعه ذلك من كثرة الانتماءات للكيانات الكبيرة المتماسكة إلى كيانات صغيرة متهافته وتلك دون غيرها هي التي حولت المجتمع الإسلامي إلى أشلاء صغيرة سهل احتوائها. هذا وكانت فكرة القومية موجهة ضد أنصار حركة الفكر المسيحي العربي أساساً ضد الدين في محاولة لجعل فكرة القومية محوراً لتجمع الشعوب العربية بدلاً من تجمعها نحو فكرة الديانة المشتركة بينما فكرة القومية عند القوميين المصريين ضد الاحتلال وليس ضد الدين.

وبصفة عامة فإن الحركة العلمانية أساساً حركة مسيحية كما تبدت في

نشأتها عند مسيحي الشام في القرن التاسع عشر، بينما كانت الحركة التوفيقية التي كانت تدعو للتوفيق بين الدين والمعاصرة حركة مفكرين إسلاميين وليس من الصدف أن يظهر بعض المفكرين المسلمين الشوام وسط هذه الموجة العاتية، ومع ذلك تجدهم قد نادوا بالتوفيقية مثل الكواكبي ورشيد رضا وشكيب أرسلان وغيرهم.

أما عن بقية الدعوات التي نادى بها مفكرو الشام المسيحيون فقد نادوا بفصل السلطة السياسية عن السلطة الدينية ودعوا إلى التمثل بالغرب فكراً وسلوكاً ومنهجاً ودعماً إلى استعارة الثقافة الأوروبية وتمثلها كما دعوا إلى الدارونية والمادية والماركسية والإلحاد أو على الأقل جاءت هذه الدعوات من خلالهم كما اعتادوا على تشويه التاريخ الإسلامي وأحداثه وزعمائه وكان آخرهم في ذلك لويس عوض الذي حاول تشويه شخصية الأفغاني وحاول أن يجعل المعلم يعقوب بطلاً قومياً وهو الذي كون جيشاً من أقباط مصر ليحاربوا مع الحملة الفرنسية ضد إخوانهم المصريين نعود لدعوات الفكر المسيحي العربي وهي تلك التي تم تفصيلها في هذا الكتاب وسوف يتطرق لها الكاتب بشكل موجز فنجد الدعوة إلى مهادنة المحتلين باعتبارهم هم أصحاب الفكر التنويري الذي نحتاج إليه ونجد محاولة وضع الإطار الأكثر اتساعاً وهو الإسلام داخل الإطار الأقل اتساعاً وهي (العروبة) وذلك عند ميشيل عفلق وقسطنطين زريق.

وكذلك دعوات إلغاء الحجاب بالإضافة إلى إنشاء الجمعيات التنويرية والمدارس ذات النزعة القومية والجرائد والمجلات لنشر أفكارهم السابقة. وقد برر قائل أن هنالك من المفكرين المسلمين من نادى بهذه الاتجاهات ولكنهم أولاً لم يكونوا البادئين بهذه الاتجاهات وهم ثانياً ما سعوا أبداً لإبدال الإطار الإسلامي بإطار آخر بل كان سعيهم في تقويمه فقط بينما كانت حركة الفكر المسيحي تسعى لتغييره تماماً.

وما سبق يتعلق بالأمر على مستوى التاريخ الحديث بصفة أساسية أما عن مستواها عبر التاريخ الإسلامي ككل فقد حدد القرآن الكريم والرسول عليه الصلاة والسلام علاقة المسلم بالذمي ومكانة الأديان الأخرى بالنسبة للإسلام

وانطلقت السيرة التاريخية للمسلمين تجاه ما شرعه القرآن وما حدده الرسول عليه الصلاة والسلام من حيث تأمينهم على أموالهم ودينهم وكنائسهم وإقرار التعاون والتسامح والعدالة تجاههم من خلال مواثيق ومواقف عملية أكدها الرسول والصحابة وسائر التاريخ الإسلامي.

وفي العصر الحديث كثير من علماء الإسلام وقف مدافعاً عن أهل الكتاب ونذكر من هؤلاء الشيخ شلتوت والشيخ الذهبي ومرشد الإخوان المسلمين المستشار حسن الهضيبي والأستاذ سعيد حوي رحمه الله أحد أقطاب الإخوان المسلمين في سوريا وقد دعا غير المسلمين في كل أقطار الأمة الإسلامية إلى ميثاق عمل يعترفون فيه بأن السلطة للإسلام والمسلمين وبعد ذلك لهم حقوقهم في وزارات الدولة وفي مجالسها النيابية بنسبة عددهم ولهم الحق في إنشاء المدارس ولهم أن يشتركوا مع المسلمين في مدارسهم. وذهب العلماء بأن حقوق أهل الذمة في التشريع الإسلامي هي حقوق الحياة والعقيدة والعبادة ولهم حقوق اجتماعية ويرى د. يوسف القرضاوي أن كلمة أهل الذمة أو الذميين تطلق على المواطنين غير المسلمين في المجتمع الإسلامي معناه العهد والاطمئنان والأمان وقد سموا بذلك لأن لهم عهد الله وعهد رسوله وعهد جماعة المسلمين أن يعيشوا في حماية الإسلام آمنين مطمئنين وهي تعطيهم ما يسمى في عصرنا الحاضر (بالجنسية) السياسية وبها يكتسبون حقوق المواطنين ويلتزمون بواجباتهم حيث تتم حمايتهم من كل عدوان خارجي وكل ظلم داخلي حتى ينعموا بالاستقرار ونحمي دمائهم وأنفسهم وأبدانهم وأموالهم. وهكذا يقدم لنا التاريخ أسبابه في عدم مشروعية بحث أصحاب الأقليات المسيحية في العالم العربي والإسلامي عن أطر جديدة للبلاد التي يعيشون فيها بدلاً من الإسلام فهل البحث عن هذا الإطار الجديد يعود لأسباب موضوعية أم لأسباب ذاتية مرتبطة بحركة هذا الفكر المسيحي نفسه وما يود أن يحدث من تغيرات في بلادنا العربية والإسلامية؟